السلسلة السلفية للرسائل والكتب النجدية (٩)

توفيق الرحمن

في دروس القرآن

تأليف

الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل آل مبارك

(١٣١٣ - ١٣٦٦هـ)

رحمه الله

حققه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه

عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد

الجزء الرابع

من سورة الشورى إلى سورة الناس

دار العليان

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

الدرس السادس والثمانون بعد المائتين

﴿سورة الملك﴾

مكية، وهي ثلاثون آية

روى أحمد وأهل السنن عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «سورة في القرآن ثلاثين آية، شفعت لصاحبها حتى غفر له ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٩ و ٣٢١)، وأبو داود (ح/ ١٤٠٠)، والترمذي (ح/ ٢٨٩١) وحسنه، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٨ و ٤٩٦)، وابن ماجه (ح/ ٣٧٨٦)، والحاكم (١/ ٥٦٥ و ٢/ ٤٩٧ ــ ٤٩٨) وصححه ووافقه الذهبي.

قلت: وفيه عباد الجشمي لم يوثقه غير ابن حبان؛ لكن للحديث شاهد من حديث أنس بنحوه، وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، فهو حديث حسن.

كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا
نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ
أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ
أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ
بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى
غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن
يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ
وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ
عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ
هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن
يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ
مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۢ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٥﴾.

قال ابن كثير[1]: يمجّد تعالى نفسه الكريمة ويخبر أنه بيده الملك، أي هو المتصرّف في جميع المخلوقات بما يشاء، لا معقّب لحكمه ولا يُسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وهو على كلّ شيء قدير﴾. وعن قتادة في قوله: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ قال: أذلّ الله ابن آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ودار فناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء.

وقوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾ قال الفضيل بن عياض: ﴿أحسن عملاً﴾ أخلصه وأصوبه، وقال: العمل لا يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنّة. ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ قال قتادة: من اختلاف ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ يقول: هل ترى من خلل يا ابن آدم؟ ﴿ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً﴾ قال: صاغراً ﴿وهو حسير﴾ يقول: معيّ، لم ير خللاً ولا تفاوتاً: ﴿ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ قال: إن الله جلّ ثناؤه إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال:

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٩٦).

خلقها زينة للسماء الدنيا، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فمن ينال منها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظّه، وأضاع نصيبه وتكلّف ما لا علم به.

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾.

عن مجاهد ﴿سمعوا لها شهيقاً وهو تفور﴾ يقول: تغلي كما يغلي القدر ﴿تكاد تميّز من الغيظ﴾ قال ابن عباس: تكاد يفارق بعضها بعضاً وتتفطّر؛ وقال ابن زيد: ﴿من الغيظ﴾ على أهل معاصي الله غضباً لله وانتقاماً له. وعن ابن عباس قوله: ﴿فسحقاً لأصحاب السعير﴾ يقول: بعداً.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين يخشون ربّهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ **قال ابن جرير**[1]: يقول تعالى ذكره: إن الذين يخافون ربهم بالغيب يقول: وهم لم يروه ﴿لهم مغفرة﴾ يقول: لهم عفو من الله عن ذنوبهم ﴿وأجر كبير﴾ يقول: وثواب من الله لهم على خشيتهم إياه بالغيب جزيل. **وقال ابن كثير**[2]: يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه، إذا كان غائباً عن الناس، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلاَّ الله تعالى، بأنه له ﴿مغفرة وأجر كبير﴾، أي: تكفّر عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلّهم الله في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلاَّ ظلّه، فذكر منهم رجلاً دعته امرأة

(١) انظر «جامع البيان» (٢٩/٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٩٧).

ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلاً تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[١].

قوله عز وجل: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

قال البغوي[٢]: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾ قال ابن عباس: نزلت في المشركين، كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم كي لا يسمع إله محمد، فقال الله جلّ ذكره ﴿ألا يعلم من خلق﴾ ألا يعلم ما في الصدور مَنْ خَلَقَها؟ ﴿وهو اللطيف الخبير﴾.

﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً﴾ سهلاً لا يمتنع المشي فيها ﴿فامشوا في مناكبها﴾ قال مجاهد: في طرقها وفجاجها ﴿وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾، أي: وإليه تبعثون من قبوركم. ثم خوّف الكفار فقال: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ قال ابن عباس: أي عذاب من في السماء إن عصيتموه ﴿أن يخسف بكم الأرض فإذا هي

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٦٦٠ و ١٤٢٣ و ٦٤٧٩ و ٦٨٠٦)، ومسلم (ح/ ١٠٣١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٤٢).

تمور﴾ قال الحسن: تتحرّك بأهلها ﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ ريحاً ذات حجارة كما فعل بقوم لوط ﴿فستعلمون﴾ في الآخرة وعند الموت ﴿كيف نذير﴾، أي: إنذاري إذا عانيتم العذاب ﴿ولقد كذّب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾، أي: إنكاري عليهم بالعذاب ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافّات﴾ تصفّ أجنحتها في الهواء ﴿ويقبضن﴾ أجنحتهنّ بعد البسط ﴿ما يمسكهنّ﴾ في حال القبض والبسط ﴿إلاّ الرحمن إنه بكلّ شيء بصير﴾.

﴿أمّن هذا الذي هو جند لكم﴾؟ استفهام إنكار ﴿ينصركم من دون الرحمن﴾ يمنعكم من عذابه ﴿إن الكافرون إلاّ في غرور﴾، أي: في غرور من الشيطان. ﴿أمّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾، أي: من الذي يرزقكم المطر إن أمسك الله عنكم؟ ﴿بل لّجوا في عتوّ﴾ تماد في الضلال ﴿ونفور﴾ تباعد من الحقّ. ثم ضرب مثلاً فقال: ﴿أفمن يمشي مكبّاً على وجهه﴾ راكباً رأسه في الضلالة والجهالة، أعمى العين والقلب لا يبصر يميناً ولا شمالاً وهو الكافر؛ قال قتادة: راكباً على المعاصي في الدنيا، فحشره الله على وجهه يوم القيامة ﴿أهدى أمّن يمشي سويّاً﴾ معتدلاً يبصر الطريق وهو ﴿على صراط مستقيم﴾ وهو المؤمن؛ قال قتادة: يمشي يوم القيامة سويّاً. انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾.

قال ابن كثير[١] وقوله تعالى: ﴿قل هو الذي أنشأكم﴾، أي: ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾، أي: العقول والإدراك ﴿قليلاً ما تشكرون﴾، أي: قلّما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره. ﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾، أي: بثّكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم، وحِلاَكُم وأشكالكم وصوركم ﴿وإليه تحشرون﴾، أي: تجمعون بعد هذا التفرّق والشتات، يجمعكم كما فرّقكم ويعيدكم كما بدأكم.

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار المنكرين للمعاد المستعبدين وقوعه ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾، أي: متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرّق؟ ﴿قال إنما العلم عند الله﴾، أي: لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلاَّ الله عز وجل، لكنه أمرني أن أخبركم أنّ هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾، أي: وإنما عليّ البلاغ وقد أدّيته إليكم. قال الله تعالى: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾، أي: لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ورأوا أن الأمر كان قريباً، لأن كل ما هو آتٍ آتٍ وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذّبوا به ساءهم ذ لك لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، أي: فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وبدالهم سيّئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿هذا الذي كنتم به تدّعون﴾، أي: تستعجلون.

﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه ﴿أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾؟، أي: خلّصوا أنفسكم فإنه لا منقذ لكم من الله إلاَّ بالتوبة والإنابة والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٩٩).

وقوع ما تتمنّون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذّبنا الله أو رحمنا فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم.

ثم قال تعالى: ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكّلنا﴾، أي: آمنّا بربّ العالمين الرحمٰن الرحيم، وعليه توكّلنا في جميع أمورنا، كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكّل عليه﴾[1] ولهذا قال تعالى: ﴿فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾، أي: منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً﴾، أي: ذاهباً في الأرض إلى أسفل فلا ينال بالفؤوس الحداد ولا السواعد الشداد، والغائر عكس النابع، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن يأتيكم بماء مَعين﴾؟، أي: نبع سائح جار على وجه الأرض، أي: لا يقدر على ذلك إلاَّ الله عز وجل، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلّة والكثرة، فللّه الحمد والمنّة.

• • •

(١) سورة هود: الآية ١٢٣.

الدرس السابع والثمانون بعد المائتين

﴿سورة نون﴾

مكية، وهي اثنتان[1] وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا
غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّيكُمُ
ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا
تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾
هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ
ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى
ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾
فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ
ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم
مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾
قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ

---

(١) في (الأصل): «أثنا»، وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ
إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ
رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ
كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ
لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟
صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم
مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن
كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ
مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ
لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾.

عن ابن عباس قال: «أول ما خلق الله من شيء القلم، فجرى بما هو كائن، ثم رفع بخار الماء فخلقت منه السموات، ثم خلق النون فبسطت الأرض على ظهر النون، فتحرّكت الأرض فمادت فأثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض، وقرأ: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾»[1]. وعن مجاهد قال: كان يقال: النون الحوت الذي تحت الأرض السابعة.

وقال ابن زيد في قول الله: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ قال: هذا قسم أقسم الله به: ﴿وما يسطرون﴾ وما يكتبون.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ١٤)، وابن منده في «التوحيد» (رقم/ ١٥ و ٦٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/ ٨٩٧)، والحاكم (٢/ ٤٩٨)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١١٧ ــ ١١٨)، وروي أوله مرفوعاً: «أول ما خلق الله تعالى القلم... كل شيء حتى تقوم الساعة». أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود (ح/ ٤٧٠٠)، والترمذي (ح/ ٢١٥٥ و ٣٣١٩) عن ابن عباس مرفوعاً، وهو صحيح.

قال ابن القيم[١]: «أقسم بالكتاب وآلته وهو القلم، والأقلام متفاوتة في الرتب، **فأعلاها وأجلّها قدراً**. قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق، **الثاني**: قلم الوحي هو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه، **الثالث**: قلم التوقيع عن الله ورسوله، وهو قلم الفقهاء والمفتين، **الرابع**: قلم طبّ الأبدان، **الخامس**: قلم التوقيع عن الملوك أو نوّابهم، **السادس**: قلم الحساب، **السابع**: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، **الثامن**: قلم الشهادة، **التاسع**: قلم التعبير، **العاشر**: قلم تواريخ العالم، **الحادي عشر**: قلم اللغة، **الثاني عشر**: القلم الجامع، وهو قلم الردّ على المبطلين ورفع سنّة المحقّين». انتهى ملخصاً.

﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ **قال البغوي**[٢]: هذا جواب لقولهم: ﴿يا أيها الذي نزّل عليه الذكر إنك لمجنون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ **قال ابن جرير**[٣]: غير منقوص ولا مقطوع؛ ﴿وإنك لعلي خلق عظيم﴾ قال ابن عباس يقول: إنك على دين عظيم وهو الإسلام. وقالت عائشة: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن»[٤]. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ قال: أدب القرآن. **قال ابن كثير**[٥]: ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجيّة له، وخلقاً تطبّعه وترك طبعه الجبليّ، فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكلّ خلق جميل. وفي الصحيحين عن أنس قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما

---

(١) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (٢٠٣ ــ ٢٠٩).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٤٦).

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ١٨).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٠٢).

قال لي: أفّ قطّ، ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: إلاَّ فعلتَه»[١].

وعن الضحاك في قوله: ﴿فستبصر ويبصرون﴾ يقول: ترى ويرون: ﴿بأيّكم المفتون﴾ يقول: إنكم أولى بالشيطان: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين فلا تطع المكذّبين ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾ قال مجاهد: ودّوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحقّ فيما يسألونك. وعن ابن عباس: ﴿ولا تطع كلّ حلاّف مهين﴾ والمهين الكذّاب: ﴿همّاز﴾ يعني الاغتياب؛ وقال قتادة: يأكل لحوم المسلمين: ﴿مشّاء بنميم﴾ ينقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض: ﴿منّاع للخير﴾ قال ابن جرير[٢]: يقول تعالى ذكره: بخيل بالمال ضنين به عن الحقوق: ﴿معتد﴾ قال قتادة: معتد في عمله: ﴿أثيم﴾ بربّه: ﴿عتلّ بعد ذلك زنيم﴾ قال الحسن: فاحش الخلق لئيم الضريبة. وروى ابن جرير عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «تبكي السماء من عبد أصحّ الله جسمه، وأرحب جوفه، وأعطاه من الدنيا معصماً، فكان للناس ظلوماً، فذلك العتلّ الزنيم»[٣]. قال ابن جرير: ومعنى «بعد» في هذا الموضع معنى «مع»، أي: مع العتلّ زنيم. وقال سعيد بن جبير: الزنيم الذي يُعرف بالشّر كما تُعرف الشاة بزنمتها، الملصق. وقال سعيد بن المسيّب: هو الملصق على القوم ليس منهم. وقال الكلبيّ هو الأخنس بن شريق وأصله من ثقيف وعداده في بني زهرة. وقال أبو زين: الزنيم الفاجر. وفي الصحيحين عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعّف؛ ألاَّ أنبئكم بأهل النار؟ كلّ عتلّ جوّاظ مستكبر»[٤]. قال أهل اللغة: الجوّاظ الجموع المنوع.

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ١٩٧٣ و ٢٧٦٨ و ٣٥٦١)، ومسلم (ح/ ٢٣٠٩ و ٢٣١٠ و ٢٣٣٠).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٢٣).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٢٤) عن زيد بن أسلم مرسلاً.

(٤) أخرجه البخاري (ح/ ٤٩١٨ و ٦٠٧١ و ٦٦٥٧)، ومسلم (ح/ ٢٨٥٣).

وقوله تعالى: ﴿أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ قال ابن كثير[1] يقول تعالى: هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله عز وجل وأعرض عنها وزعم أنها كذب. وعن قتادة: ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ قال: سنسمه على أنفه. وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن العبد يكتب مؤمناً أحقاباً ثم أحقاباً ثم يموت والله عليه ساخط، وإن العبد يكتب كافراً أحقاباً ثم أحقاباً ثم يموت والله عليه راض، ومن مات همّازاً لمّازاً ملقّباً للناس كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشفتين»[2]. رواه ابن أبي حاتم.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قال البغوي[3]: ﴿إنا بلوناهم﴾ يعني اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع: ﴿كما بلونا﴾ ابتلينا: ﴿أصحاب الجنة﴾. وقال قتادة: كانت الجنة لشيخ وكان

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٠٥)، بسند ضعيف.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٤٩).

يتصدّق، فكان بنوه ينهونه عن الصدقة، وكان يمسك قوت سنة وينفق ويتصدّق بالفضل، فلما مات أبوهم غدوا عليها فقالوا: ﴿لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين﴾. وقال سعيد بن جبير: هي أرض باليمن يقال لها خضروان من صنعاء على ستة أميال.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿فأصبحت كالصريم﴾ قال: الصريم الليل؛ وفي رواية كالرماد الأسود. وعن قتادة قوله: ﴿فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون﴾ يقول: يسرّون: ﴿أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين﴾ قال مجاهد: على جدّ قادرين في أنفسهم. وقال سفيان: على حنق. ﴿فلما رأوها قالوا إنا لضالّون﴾ قال قتادة، أي: أضللنا الطريق: ﴿بل نحن محرومون﴾ بل جوزينا فحُرمنا. ﴿قال أوسطهم﴾ قال ابن عباس أَعْدَلُهُمْ: ﴿ألم أقل لكم لولا تسبّحون﴾ قال مجاهد يقول: تستثنون، فكان التسبيح فيهم الاستثناء.

قال ابن جرير[1]: هو قول القائل: إن شاء الله. **قال ابن كثير**[2]: وقيل معناه، أي: هلاّ تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم؟ ﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع. ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ قال ابن كثير: **قيل**: رغبوا في بدلها لهم في الدنيا، وقيل: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة. **وقال البغوي**[3]: قال عبد الله بن مسعود: بلغني أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق، فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منها عنقوداً واحداً. قال الله تعالى: ﴿كذلك العذاب﴾، أي: كفعلنا

(١) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٣٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٠٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥١).

بهم نفعل بمن تعدّى حدودنا وخالف أمرنا: ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ قال ابن كثير[١]، أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشقّ. وقال ابن جرير[٢] وقوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ يقول: لو كان هؤلاء المشركون يعلمون أن عقوبة الله لأهل الشرك به أكبر من عقوبته لهم في الدنيا، لارتدعوا وتابوا وأنابوا، ولكنهم بذلك جهّال لا يعلمون.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قال البغوي[٣]: ثم أخبر بما أعدّه للمتقين فقال: ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ فقال المشركون: إنا نعطي في الآخرة أفضل مما تعطون، فقال الله تكذيباً لهم: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون أم لكم كتاب﴾ نزل من عند الله: ﴿فيه تدرسون﴾ تقرؤون: ﴿إنّ لكم فيه﴾ في ذلك الكتاب: ﴿لما تخيّرون﴾ تختارون وتشتهون: ﴿أم لكم أيمان﴾ عهود ومواثيق: ﴿علينا بالغة﴾ مؤكّدة عاهدناكم عليها فاستوثقتم بها منا فلا تنقطع إلى يوم القيامة. ﴿إنّ لكم﴾ كَسَرَ «إنّ» لدخول اللام في الخير في ذلك العهد: ﴿لما تحكمون﴾ لأنفسكم من الخير والكرامة.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٠٧).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٣٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥١).

﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ قال ابن كثير[١]، أي: قل لهم: من هو المتضمّن المتكفّل بهذا؟ قال ابن عباس يقول: أيّهم بذلك كفيل؟ ﴿أم لهم شركاء﴾، أي: من الأصنام والأنداد: ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾. ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ قال ابن عباس: «عن أمر عظيم، يقول: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال، وكشفه دخول الآخرة وكشف الأمر عنه، وهي أشدّ ساعة في يوم القيامة»[٢]. وعن عبد الله بن مسعود قال: «ينادي مناد يوم القيامة: أليس عدلاً من ربكم أن خلقكم ثم صوّركم ثم رزقكم ثم تولّيتم غيره، أن يولي كلّ عبد منكم ما تولّى؟ فيقولون: بلى، قال: فيمثل لكلّ قوم آلهتم التي كانوا يعبدونها حتى توردهم النار، ويبقى أهل الدعوة فيقول بعضهم لبعض: ماذا تنتظرون؟ ذهب الناس، فيقولون: ننتظر أن ينادي بنا، فيجيء إليهم في صورة، قال: فذكر منها ما شاء الله، فيكشف عما شاء الله أن يكشف، قال: فيخرّون سجّداً إلاَّ المنافقين، فإنه يصير فقار أصلابهم عظماً واحداً مثل صياصي البقر، فيقال لهم: ارفعوا رؤوسكم إلى نوركم»[٣]؛ ثم ذكر قصة فيها طول. رواه ابن جرير. وفي رواية قال: «يتمثّل الله للخلق يوم القيامة حتى يمرّ المسلمون، فيقول: من تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله لا نشرك به شيئاً، فينتهرهم مرّتين أو ثلاثاً، فيقول: هل تعرفون ربّكم؟ فيقولون: سبحانه، إذا اعترف إلينا عرفناه، قال: فعند ذلك يكشف عن ساق فلا يبقى مؤمن إلاَّ خرّ لله ساجداً، ويبقى المنافقون ظهورهم طبق واحد كأنما فيها السفافيد، فيقولون: ربنا، فيقول: «قد كنتم تدعون إلى السجود وأنتم سالمون»[٤].

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٠٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٣٨) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٣٩ ــ ٤٠)، والحاكم (٤/ ٥٨٩ ــ ٥٩٢) وصححه، وهو كما قال: وتعقبه الذهبي بكلام مردود، وقد تناقض.

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٣٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (رقم/ ٢٥٢) بسند لا بأس به.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدريّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كلّ مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»(١). وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يأخذ الله للمظلوم من الظالم، حتى إذا لم يبق تبعة لأحد عند أحد، جعل الله ملكاً من الملائكة على صورة عزير فتتبعه اليهود، وجعل الله ملكاً من الملائكة على صورة عيسى فتتبعه النصارى، ثم نادى مناد أَسْمَعَ الخلائق كلّهم فقال: ألاَّ ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله، فلا يبقى أحد كان يعبد من دون الله شيئاً، إلاَّ مثّل له آلهته بين يديه ثم قادتهم إلى النار، حتى إذا لم يبق إلاَّ المؤمنون فيهم المنافقون، قال الله جلّ ثناؤه: أيها الناس ذهب الناس ذهب الناس، ألحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون، فيقولون: والله ما لنا إله إلاَّ الله، وما كنا نعبد إلهاً غيره، وهو الله ثبّتهم، ثم يقول لهم الثانية مثل ذلك: ألحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون، فيقولون مثل ذلك، فيقال: هل بينكم وبين ربّكم من آية تعرفونها؟ فيقولون: نعم، فيتجلّى لهم من عظمته ما يعرفونه أنه ربّهم، فيخرّون له سجّداً على وجوههم، ويقع كل منافق على قفاه، ويجعل الله أصلابهم كصياصي البقر»(٢). وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾ قال: كانوا يسمعون: حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، فلا يجيبوك.

قوله عز وجل: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٩١٩)، ومسلم (ح/١٨٣) مطولاً.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٤١) بسند ضعيف. قلت: وفي هذه الأحاديث الصحيحة، دلالة صريحة على إثبات صفة الساق لله عز وجل، على الوجه اللائق به تعالى وهذا هو مذهب أهل السنَّة سلفاً وخلفاً، وليس في هذا خلاف بين الصحابة، كما توهمه جهمية عصرنا لعنهم الله.

عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قال البغوي[1]: ﴿فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث﴾، أي: فدعني والمكذّبين بالقرآن وخلّ بيني وبينهم. قال الزجاج: معناه لا تشغل قلبك وَكِلْهُ إليّ فإني أكفيك أمره: ﴿سنستدرجهم﴾ سنأخذهم بالعذاب من حيث لا يشعرون. وقال ابن جرير[2]: يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: كِلْ يا محمد أمر هؤلاء المكذّبين بالقرآن إليّ، وهذا كقول القائل لآخر غيره يتوعّد رجلاً: دعني وإياه، وخلّني وإياه، بمعنى أنه من وراء مساءته. ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين﴾ قال ابن جرير: قويّ شديد. وفي الصحيحين عن النبيّ ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ــ ثم قرأ ــ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾»[3].

قال في جامع البيان: سمّى الاستدراج كيداً لأنه في صورة الكيد. ﴿ألم تسألهم﴾ يا محمد: ﴿أجراً﴾ على الهداية: ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ غرامة مثقلون بحملها فلذا يعرضون عنك؛ و «أم» منفصلة والهمزة للإنكار: ﴿أم عندهم الغيب﴾ علم الغيب: ﴿فهم يكتبون﴾ فلا يحتاجون إليك وإلى علمك. ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ بإمهالهم: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ يونس عليه السلام في العجلة والضجر: ﴿إذ نادى﴾ في بطن الحوت: ﴿وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥٣).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٤٣).

(٣) أخرجه البخاري ح/ ٤٦٨٦)، ومسلم (ح/ ٢٥٨٣).

ربه﴾ بقبول توبته: ﴿لنبذ بالعراء﴾ لطرح بالقضاء من بطن الحوت: ﴿وهو مذموم﴾ حال كونه مجرماً ملوماً، يعني لمّا تداركه برحمته نبذه على حال غير حال الذم واللوم: ﴿فاجتباه ربه﴾ اصطفاه: ﴿فجعله من الصالحين﴾ من الأنبياء.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليذلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر﴾ يقول: ينفذونك بأبصارهم من شدّة النظر، وعن ابن مسعود أنه كان يقرأ: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزهقونك﴾. وقال الكلبيّ: ﴿ليزلقونك﴾ ليصرعونك. وقال الضحاك: ينفذونك بأبصارهم من العداوة والبغضاء. وقال ابن كثير[1]، أي: يعينونك بأبصارهم، بمعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم؛ وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حقّ بأمر الله عز وجل. وعن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «العين حقّ، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا»[2]. رواه مسلم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿لمّا سمعوا الذكر﴾، أي: أن هذا النظر كان يشتدّ منهم في حال قراءة النبيّ ﷺ القرآن، حسداً على ما أوتي من النبوّة: ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾ تنفيراً عنه مع علمهم بأنه أعقلهم؛ ثم قال تعالى: ﴿وما هو﴾، أي: القرآن: ﴿إلاَّ ذكر للعالمين﴾ الجنّ والإنس، فكيف يمكن نسبة من جاء بمثله إلى الجنون؟ والله المستعان.

• • •

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (ح/ ٢١٨٨).

الدرس الثامن والثمانون بعد المائتين

﴿سورة الحاقة﴾

وهي اثنتان[1] وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ

---

(١) في (الأصل): «اثنتي»، وهو خطأ.

ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا
حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَه ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾
خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ
كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا
حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾
وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا
بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ
ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ
حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾.

قال ابن عباس: ﴿الحاقّة﴾ من أسماء يوم القيامة عظّمه الله وحذّره عباده. وقال قتادة: ﴿الحاقّة﴾، يعني: الساعة أحقّت لكلّ عامل عمله. **وقال البغوي**[1]: سمّيت حاقّة لأنها حُقّت فلا كاذبة لها ﴿ما الحاقّة﴾ هذا استفهام معناه التفخيم لشأنها ﴿وما أدراك ما الحاقّة﴾ قال سفيان: ما في القرآن ﴿وما يدريك﴾ فلم يخبره، وما كان ﴿وما أدراك﴾ فقد أخبره. ﴿كذّبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ قال قتادة: أي بالساعة ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ قال: بعث الله عليهم صيحة فأهمدتهم ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ قال ابن عباس يقول: بريح مهلكة باردة، عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، دائمة لا تفتر؛ وقال: ما أرسل الله من ريح قطّ إلاّ بمكيال، ولا أنزل قطرة قطّ إلاّ بمثقال، إلاّ يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على خزانه فلم يكن لهم عليه سبيل، ثم قرأ ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾، وإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ ﴿بريح صرصر عاتية سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥٥).

يقول: تباعاً ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾. وفي الصحيحين: «نُصرت بالصّبا، وأهلكت عاد بالدبور»[١].

﴿فهل ترى لهم من باقية﴾؟ **قال ابن كثير**[٢]: أي هلّ تحسّ منهم من أحد من بقاياهم أو من ينتسب إليهم؟ بل بادوا عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفاً. وعن قتادة قوله: ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات﴾ قرية قوم لوط ﴿بالخاطئة﴾ قال مجاهد: الخطايا ﴿فعصوا رسول ربّهم﴾ **قال ابن كثير**: أي كلّ كذّب رسولَ الله إليهم ﴿فأخذهم أخذة رابية﴾ قال ابن عباس: يعني أخذة شديدة. وعن قتادة قوله: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ ذاكم زمن نوح، طغى الماء على كلّ شيء خمس عشرة ذراعاً بقدر كلّ شيء. قال ابن زيد: والجارية سفينة نوح التي حملهم فيها ﴿لنجعلها لكم تذكرة﴾ قال قتادة: فأبقاها الله تذكرة وعبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعد سفينة نوح قد صارت رماداً ﴿وتعيها أذن واعية﴾ إن غفلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله.

وقال ابن كثير[٣]: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء ﴿لنجعلها لكم تذكرة﴾ عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه، أي: وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيّار الماء في البحار، كما قال تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذرّيّتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ح/ ١٠٣٥ و ٣٢٠٥ و ٣٣٤٣ و ٤١٠٥)، ومسلم (ح/ ٩٠٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤١٢).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٤١٣).

(٤) سورة يس: الآية ٤١.

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

قال البغوي[(١)]: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ وهي النفخة الأولى ﴿وحملت الأرض والجبال﴾ رفعت عن أماكنها ﴿فدكّتا﴾ كسرتا ﴿دكّة﴾ كسرة ﴿واحدة﴾ فصارتا هباء منثوراً. ﴿وانشقّت السماء فهي يومئذ واهية﴾ قال ابن عباس: يعني ضعيفة ﴿والملك على أرجائها﴾ يقول: والملك على حافات السماء حين تشقّق. وعن سعيد بن جبير ﴿والملك على أرجائها﴾ قال: على ما لم يَهِ منها. ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ قال ابن إسحاق: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «هم اليوم أربعة ــ يعني حملة العرش ــ وإذا كان يوم القيامة أيّدهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية، وقد قال الله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾»[(٢)]؛ قال ميسرة: أرجلهم في التخوم لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم من شعاع النور، وعن جابر ابن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أذن لي أن أحدّث عن مَلَكٍ من ملائكة الله تعالى من حملة العرش: إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»[(٣)]. رواه أبو داود وغيره.

وقوله تعالى: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ **قل ابن كثير**[(٤)]: أي

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٥٩) مختصراً، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/ ١٤٦) مطولاً، وهو منقطع.

(٣) أخرجه أبو داود (ح/ ٤٧٢٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/ ٤٧٦)، والخطيب في «تاريخه» (١٠/ ١٩٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١٤٢)، وهو حديث صحيح.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤١٤).

تعرضون على عالم السرّ والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تخفى منكم خافية﴾. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسِبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، فإنه أخفّ عليكم في الحساب غداً أن تحاسِبو أنفسكم اليوم وتَزِينوا للعرض الأكبر ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾»[1]. وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله»[2].

قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال ابن جرير[3]: يقول تعالى ذكره: فأما من أُعطي كتاب أعماله بيمينه

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا، كما عزاه له ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤١٤)، وأيضاً في «مسند الفاروق» (٢/ ٦١٨) وقال: «أثر مشهور، وفيه انقطاع».

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٤)، والترمذي (ح/ ٢٤٢٧)، وابن ماجه (ح/ ٤٢٧٧)، قال الترمذي: «ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى».

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٦٠).

فيقول: تعالوا اقرؤوا كتابيه. **وقال ابن كثير**[١]: يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك، وأنه من شدّة فرحه يقول لكلّ من لقيه: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾، أي: خذوا اقرؤوا كتابي، لأنه يعلم أن الذي فيه خير؛ قال: ومعنى ﴿هاؤم﴾ هاكم. وعن قتادة: ﴿إنّي ظننت أنّي ملاقٍ حسابيه﴾ ظنّ ظنّاً يقيناً فنفعه الله بظنّه ﴿فهو في عيشة راضية في جنّة عالية قطوفها دانية﴾ قال قتادة: دنت فلا يردّ أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك. وروى الطبراني عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة إلاَّ بجواز: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، أدخلوه جنّة عالية قطوفها دانية»[٢].

وقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ قال قتادة: إن أيامكم هذه أيام خالية تؤدّي إلى أيام باقية، فاعملوا في هذه الأيام وقدّموا فيها خيراً إن استطعتم، ولا قوّة إلاَّ بالله. وفي الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال: «اعملوا وسدّدوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً منكم لن يدخله عمله الجنّة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «ولا أنا، إلاَّ أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل»[٣].

﴿وأما من أوتي كتابه بشماله﴾ قال ابن السائب: تلوى يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطى كتابه ﴿فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه يا ليتها كانت القاضية﴾ **قال البغوي**[٤] **يقول**: يا ليت الموتة التي متّها في الدنيا ﴿كانت القاضية﴾ الفارغة من كلّ ما بعدها، والقاطعة للحياة، فلم أَحْيَ بعدها. قال قتادة: يتمنّى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا عنده أكره من الموت. ﴿ما أغنى عنّي ماليه هلك عنّي سلطانيه﴾ قال ابن زيد: سلطان الدنيا. وعن مجاهد قوله: ﴿هلك عنّي

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٥).

(٢) أخرجه الطبراني (٦/ ٢٧٢)، والخطيب في تاريخه (٥/ ٥) بسند ضعيف.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥٨).

سلطانيه﴾ قال: حجّتي. وقال قتادة: أما والله ما كلّ من دخل النار كان أمير قرية يجيبها، ولكن الله خلقهم وسلّطهم على أقرانهم، وأمرهم بطاعة الله، ونهاهم عن معصية الله. وقال الفضيل بن عياض: إذا قال الربّ عز وجل: ﴿خذوه فغلّوه﴾ ابتدره سبعون ألف ملك أيّهم يجعل الغلّ في عنقه ﴿ثم الجحيم صلّوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ قال ابن عباس: تسلك في دبره حتى تخرج من منخريه، حتى لا يقوم على رجليه.

﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحضّ على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا حميم﴾ قال ابن جرير[1]: يعني في الدار الآخرة، قريب يدفع عنه ويعينه مما هو فيه من البلاء.

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾[2]. وعن قتادة قوله: ﴿ولا طعام إلاَّ من غسلين﴾ شرّ الطعام وأخبثه وأبشعه. وعن ابن عباس قوله: ﴿ولا طعام إلاَّ من غسلين﴾ صديد أهل النار ﴿لا يأكله إلاَّ الخاطئون﴾ قال البغوي[3]: أي الكافرون.

قوله عز وجل: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

---

(١) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٦٤).

(٢) سورة غافر: الآية ١٨.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥٩).

قال ابن زيد في قوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ أقسم بالأشياء، حتى أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون. **قال ابن القيّم**[١]: «وهذا أعمّ قسم وقع في القرآن، فإنه يعمّ العلويّات والسفليّات، والدنيا والآخرة».

﴿إنه﴾ **قال البغوي**[٢]: يعني القرآن ﴿لقول رسول كريم﴾، أي: تلاوة ﴿رسول كريم﴾، يعني: محمد ﷺ. **قال ابن كثير**[٣]: أضافه إليه على معنى التبليغ، لأن الرسول من شأنه أن يبلّغ عن المرسِل، ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكيّ. وعن قتادة ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾ طهّره الله من ذلك وعصمه.

﴿ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون﴾ طهّره من الكهانة وعصمه ﴿تنزيل من ربّ العالمين ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل﴾ قال ابن كثير يقول تعالى: ﴿ولو تقوّل علينا﴾، أي: محمد ﷺ؛ لو كان كما يزعمون مفترياً علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة. **وقال ابن جرير**[٤]: ﴿ولو تقوّل علينا﴾ محمد بعض الأقاويل الباطلة، وتكذّب علينا ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ يقول: أخذنا منه بالقوّة منا والقدرة ﴿ثم لقطعنا منه﴾ نياط القلب. وعن ابن عباس: ﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ يقول: عرق القلب. وقال مجاهد: حبل القلب الذي في الظهر ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾. وعن قتادة ﴿وإنه لتذكرة للمتّقين﴾ قال: القرآن ﴿وإنا لنعلم أنّ منكم مكذّبين وإنه لحسرة على الكافرين﴾ قال قتادة: ذاكم يوم القيامة.

---

(١) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ١٧٤).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٥٩).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤١٧).

(٤) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٦٦).

﴿وإنّه لحقّ اليقين﴾ **قال ابن كثير**[١]: أي الخبر الصدق الحقّ، الذي لا مرية فيه ولا شكّ ولا ريب ﴿فسبّح باسم ربك العظيم﴾. وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: خرجت أتعرّض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقّة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ ﴿إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾ فقلت: كاهن، فقرأ ﴿ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون تنزيل من ربّ العالمين ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ إلى آخر السورة، فوقع الإسلام في قلبي كلّ موقع»[٢].

• • •

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤١٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٧) وفيه انقطاع.

الدرس التاسع والثمانون بعد المائتين

﴿سورة المعارج﴾

مكية، وهي أربع وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم

بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن
يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ
إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟
يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً
أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قال: ذاك سؤال الكفار عن عذاب الله، وهو واقع. وعن قتادة قوله: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قال: سأل عذاب الله أقوام، فبيّن الله على من يقع فقال: ﴿للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج﴾ قال مجاهد: معارج السماء ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾، قال: منتهى أمره من أسفل الأرض ومن الأرض إلى منتهى أمره من فوق السموات مقدار خمسين ألف سنة، ويوم كان مقداره ألف سنة يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة، لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام. وعن ابن عباس قال: «غلظ كلّ أرض خمسمائة عام، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام، فذلك سبعة آلاف عام؛ وغلظ كلّ سماء خمسمائة عام، وبين السماء إلى السماء خمسمائة عام، فذلك أربعة عشر ألف عام؛ وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستّة وثلاثين ألف عام، فذلك قوله تعالى: ﴿في يوم كان مقداره

خمسين ألف سنة﴾[١].

قلت: ويشهد لهذا القول ما رواه الإمام أحمد وغيره عن عبادة بن الصامت عن النبيّ ﷺ قال: «الجنّة مائة درجة، ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»[٢]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنّة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنّة وأوسط الجنّة، ومنه تفجّر أنهار الجنّة، وفوقه عرش الرحمٰن»[٣].

وقال البغوي[٤]: ﴿تعرج الملائكة والروح﴾، يعني: جبريل عليه السلام ﴿إليه﴾، أي: إلى الله عز وجل ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ من سني الدنيا، لو صعد غير الملك من بني آدم، من منتهى أمر الله تعالى من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمر الله تعالى من فوق السماء السابعة، لما صعد في أقلّ من خمسين ألف سنة، والملك يقطع ذلك كلّه في ساعة واحدة. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ قال: هذا حين كان يأمره بالعفو عنهم لا يكافئهم، فلما أمر بالجهاد والغلظة عليهم أمر بالشدّة والقتل حتى يتركوا، ونسخ هذا. **قال ابن جرير**[٥]: وهذا الذي قاله ابن زيد أنه كان أمر بالعفو بهذه الآية ثم نسخ ذلك، قول لا وجه له، لأنه لا دلالة على صحّة ما قال من بعض الأوجه التي تصحّ منها الدعاوى، وليس في أمر الله نبيّه ﷺ بالصبر الجميل على أذى المشركين ما يوجب أن يكون ذلك أمراً منه له به في بعض الأحوال، بل كان ذلك أمراً من الله له به في

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤١٩)، بسند ضعيف جداً.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٦٢).

(٥) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٧٢).

كلّ الأحوال، لأنه لم يزل ﷺ من لدن بعثه الله إلى أن اخترمه في أذى منهم، وهو في كلّ ذلك صابر على ما يلقى منهم من أذى، قبل أن يأذن الله له بحربهم وبعد إذنه له بذلك.

وقال ابن كثير[١] وقوله تعالى: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾، أي: اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه، كقوله: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحقّ﴾[٢] ولهذا قال: ﴿إنهم يرونه بعيداً﴾، أي: وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع، بمعنى: مستحيل الوقوع ﴿ونراه قريباً﴾ قال البغوي[٣]: لأن ما هو آت قريب، وهو يوم القيامة.

﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ قال مجاهد: كعكر الزيت، وقال قتادة: تتحوّل يومئذ لوناً آخر إلى الحمرة ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ قال: كالصوف ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ يشغل كلّ إنسان بنفسه عن الناس. وعن ابن عباس قوله: ﴿يبصّرونهم﴾ قال: يعرف بعضهم بعضاً، ويتعارفون بينهم، ثم يفرّ بعضهم من بعض، يقول: ﴿لكلّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾. وقال ابن كثير[٤]: وقوله تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً يبصّرونهم﴾، أي: لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره ﴿يودّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه﴾ قال ابن زيد: فصيلته عشيرته ﴿ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه﴾ ذلك الفداء من عذاب الله. قال قتادة: الأحَبّ فالأحبّ، والأقرب فالأقرب من أهله وعشيرته لشدائد ذلك اليوم.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٠).

(٢) سورة الشورى: الآية ١٨.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٦٢).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٠).

قال البغوي[١]: ﴿كلا﴾ لا ينجيه من عذاب الله شيء، ثم ابتدأ فقال: ﴿إنها لظى﴾ وهي اسم من أسماء جهنّم ﴿نزاعة للشوى﴾ قال قتادة: أي نزّاعة لهامته ومكارم خلقه وأطرافه. وقال الضحاك: تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً. وقال الحسن: تحرق كلّ شيء منه ويبقى فؤاده نضيجاً. وعن قتادة قوله: ﴿تدعو من أدبر وتولّى﴾ أدبر عن طاعة الله وتولّى عن كتاب الله وعن حقّه ﴿وجمع فأوعى﴾ كان جموعاً قموماً للخبيث. وقال ابن عباس: ﴿تدعو﴾ الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحبّ. وقال البغوي: ﴿وجمع﴾، أي: جمع المال ﴿فأوعى﴾ أمسكه في الوعاء ولم يؤدّ حقّ الله منه.

قوله عز وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً﴾ قال: هو الذي قال الله ﴿إذا مسّه الشرّ جزوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً﴾ قال ابن جرير[٢]: والهلع شدّة الجزع مع شدّة الحرص والضجر. وقال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحبّ ما يسرّه ويهرب مما يكره، ثم تعبّده بإنفاق ما يحبّ والصبر على ما يكره. وعن قتادة قوله: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسّه الشر جزوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً إلاّ المصلّين الذين

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٦٣).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٧٨)

هم على صلاتهم دائمون﴾ ذكر لنا أن دانيال نعت أمة محمد ﷺ قال: يصلّون صلاة لو صلّاها قوم نوح ما غرقوا، أو عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة، فعليكم بالصلاة فإنها خُلُقٌ للمؤمنين حَسَنٌ»[١]. وعن إبراهيم ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال: المكتوبة.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿والذين في أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم﴾ يقول: هو سوى الصدقة، يصل بها رحماً، أو يقري بها ضيفاً، أو يحمل بها كَلًّا، أو يُعين بها محروماً؛ وقال: المحروم هو المحارف الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه، فلا يسأل الناس. وقال ابن زيد: المحروم المصاب ثمره وزرعه. وقال قتادة: السائل الذي سأل بكفّه، والمحروم المتعفّف، ولكليهما عليك حقّ يا ابن آدم.

﴿والذين يصدّقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون إن عذاب ربهم غير مأمون﴾. قال ابن كثير[٢]: أي لا يأمنه أحد ممن غفل عن الله أمره إلاَّ بأمان من الله تبارك وتعالى.

﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلاَّ على أزواجهم أو ما ملك أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ قال ابن جرير[٣]: فمن التمس لفرجه منكم سوى زوجته أو ملك يمينه، ففاعلو ذلك هم العادون الذين عدوا ما أحلّ الله لهم إلى ما حرّم عليهم، فهم الملومون.

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ قال ابن كثير[٤]: أي إذا اؤتمنوا لم يخونوا وإذا عاهدوا لم يغدروا. وقال ابن جرير[٥]: راعون: يرقبون ذلك

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٧٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٢).

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٨٤).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٢).

(٥) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٨٤).

ويحفظونه فيضيّعونه. ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ قال ابن كثير[١]: أي محافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتمونها.

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾[٢].

﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ قال ابن كثير[٣]: أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحبّاتها؛ فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدلّ على الاعتناء بها والتنويه بشرفها، ولهذا قال: ﴿أولئك في جنّات مكرمون﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾ قال: قبلك ينظرون ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ قال: العزين العصب من الناس، عن يمين وشمال معرضين عنه يستنبئون به. وقال قتادة: ﴿عزين﴾، أي: فِرَقٌ حول النبيّ ﷺ لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبيّه. وروى ابن جرير عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ خرج على أصحابه وهم حِلَقٌ حِلَقٌ فقال: «مالي أراكم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٢).

(٢) سورة النساء: الآية ١٣٥.

(٣) المصدر السابق (٤/ ٤٢٢).

عزين»[١]؟ قال البغوي[٢]: والعزين جماعات في تفرقة، واحدتها عزة.

﴿أيطمع كلّ امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ قال ابن عباس: معناه أيطمع كلّ رجل منهم أن يدخل جنّتي كما يدخلها المسلمون ويتنعم فيها، وقد كذّب نبيّ؟ ﴿كلاّ﴾ لا يدخلونها؛ ثم ابتدأ فقال: ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾، أي: من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، نبّه الناس على أنهم خلقوا من أصل واحد، وإنما يتفاضلون ويستوجبون الجنّة بالإيمان والطاعة. وعن قتادة قوله: ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ إنما خلقت من قذر يا ابن آدم، فاتّق الله. ﴿فلا أقسم بربّ المشارق والمغارب، إنا لقادرون على أن نبدّل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين﴾ ما يفوتنا منهم أحد، وعن ابن عباس في قوله: ﴿ربّ المشارق والمغارب﴾ قال: «إن الشمس تطلع كلّ سنة في ثلاثمائة وستين كوّة، تطلع كلّ يوم في كوّة، لا ترجع إلى تلك الكوة إلاّ ذلك اليوم من العام المقبل، ولا تطلع إلاّ وهي كارهة، تقول: ربّ لا تطلعني على عبادك، فإني أراهم يعصونك»[٣].

﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ عن قتادة ﴿يوم يخرجون من الأجداث﴾، أي: من القبور ﴿سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ قال: إلى عَلَمٍ يسعون ﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة﴾ قال ابن كثير[٤]: أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾ قال قتادة: ﴿ذلك اليوم﴾ يوم القيامة ﴿الذي كانوا يوعدون﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٨٦)، وفيه سنده ضعف، لكن له شاهد من حديث جابر ــ رضي الله عنه ــ أخرجه مسلم (ح/ ٤٣٠) بنحوه.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٦٤).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٨٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/ ٦٤٦).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٤).

الدرس التسعون بعد المائتين

﴿سورة نوح﴾

مكية، وهي ثمانٍ وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾
قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا
دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ
ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾
فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم
بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾ وَقَدۡ
خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ
نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا
وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا
فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٢١﴾

وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

عن قتادة قوله: ﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾ قال: أرسل الله المرسلين بأن يعبد الله وحده، وأن تتّقي محارمه، وأن يطاع أمره. وعن مجاهد في قول الله: ﴿إلى أجل مسمى﴾ قال: ما قد خطّ من الأجل، فإذا جاء أجل الله لا يؤخّر. وقال ابن كثير[1]: يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه، آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم، ولهذا قال: ﴿أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين﴾، أي: بيّن النذارة ظاهر الأمر واضحه: ﴿أن اعبدوا الله واتقوه﴾، أي: اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿وأطيعون﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾، أي: إذا فعلتم ما آمركم به وصدّقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم ﴿ويؤخّركم إلى أجل مسمى﴾، أي: يمدّ في أعماركم، ويدرأ عنكم العذاب ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخّر لو كنتم تعلمون﴾، أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة. انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٢٤).

ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فلم يزدهم دعائي إلاَّ فراراً﴾ قال: بلغنا أنهم كانوا يذهب الرجل بابنه إلى نوح فيقول لابنه: احذر هذا لا يغوينّك، فأراني قد ذهب بي أبي إليه وأنا مثلك فحذّرني كما حذّرتك. وقال ابن زيد في قوله: ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ لئلاّ يسمعوا كلام نوح عليه السلام: ﴿وأصرّوا﴾ قال: الإصرار إقامتهم على الشرّ والكفر. وعن مجاهد قوله: ﴿ثم إنّي دعوتهم جهاراً﴾ قال: الجهار الكلام المعلن به: ﴿ثم إنّي أعلنت لهم﴾ قال: صحت: ﴿وأسررت لهم إسراراً﴾ قال: فيما بيني وبينهم. وعن قتادة في قوله: ﴿ثم إنّي دعوتهم جهاراً﴾ إلى قوله: ﴿ويجعل لكم أنهاراً﴾ قال: رأى نوح قوماً تجرّعت أعناقهم حرصاً على الدنيا، فقال: هلمّوا إلى طاعة الله، فإن فيها درك الدنيا والآخرة.

وعن مجاهد: ﴿مالكم لا ترجون لله وَقاراً﴾ قال: لا ترون لله عظمة. وقال ابن عباس: مالكم لا تعظّمون الله حقّ عظمته؟ وقال ابن زيد: الوقار الطاعة. وعن قتادة: ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة، وطوراً عظاماً، ثم كسى العظام لحماً ثم أنشأه خلقاً آخر أنبت به الشعر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

قوله تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهنّ

نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ **قال ابن كثير**[1]: وكلّ هذا مما ينبّههم به نوح عليه السلام، على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناء والأرض مهاداً، وأوسع على خلقه من رزقة، فهو الذي يحب أن يعبد ويوحّد ولا يشرك به أحد، لأنه لا نظير له ولا عديل له، ولا ندّ ولا كفؤ، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العليّ الكبير.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾.

قال البغوي[2]: ﴿قال نوح ربّ إنهم عصوني﴾ يعني لم يجيبوا دعوتي: ﴿واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلاَّ خساراً﴾ يعني اتبع السفلة والفقراء القادة والرؤساء الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلاَّ ضلالاً في الدنيا، وعقوبة في الآخرة: ﴿ومكروا مكراً كبّاراً﴾، أي: كبيراً عظيماً. قال ابن عباس: قالوا قولاً عظيماً. وقال الضحاك: افتروا على الله وكذّبوا رسله.

﴿وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يَغوث ويَعوق ونسراً﴾ قال محمد بن قيس: كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوّروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال:

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٦).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٦٨).

إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر فعبدوهم. وعن قتادة: ﴿لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يَغوث ويَعوق ونَسراً﴾ قال: كان وَدّ لهذا الحيّ من كلب بدومة الجندل، وكانت سُواع لهذيل برياط، وكان يَغوث لبني غطيف من مراد بالجُرْف، وكان يَعوق لهمدان، وكان نَسر لذي الكلاع من حِمْير، قال: كانت آلهة تعبدها قوم نوح ثم عبدتها العرب بعد ذلك. وعن ابن عباس أن تلك الأوثان دفنها الطوفان وطمّها التراب، فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب.

قال ابن كثير[1] **وقوله تعالى:** ﴿وقد أضلّوا كثيراً﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها، أضلّوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم؛ وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه: ﴿واجنبني وبَنِيّ أن نعبد الأصنام، ربّ إنهنّ أضللن كثيراً من الناس﴾[2]. وقوله: ﴿ولا تزد الضالمين إلاَّ ضلالاً﴾ دعاء منه على قومه لتمرّدهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾[3] وقد استجاب الله لكلّ من النبيّين في قومه، وأغرق أمّته لتكذيبهم بما جاءهم به.

قوله عز وجل: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

عن سفيان قوله: ﴿مما خطيئآتهم أغرقوا﴾ وعن قتادة في قوله: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾ أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٧).

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٥.

(٣) سورة يونس: الآية ٨٨.

أنه لن يؤمن من قومك إلاَّ من قد آمن، فعند ذلك دعا عليهم نبيّ الله نوح فقال: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفّاراً﴾؛ ثم دعا دعوة عامة فقال: ﴿ربّ اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلاَّ تباراً﴾ قال مجاهد: إلاَّ خساراً. وعن عبيد بن عمير الليثي أنه كان يحدّث أنه بلغه: «أنهم كانوا يبطشون به ــ يعني قوم نوح ــ فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، حتى إذا تمادوا في المعصية، وعظمت في الأرض منهم الخطيئة، وتطاول عليه عليهم الشأن، واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر النجل بعد النجل، فلا يأتي قرن إلاَّ كان أخبث من القرن الذي قبله، حتى أن الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا ومع أجدادنا هكذا مجنوناً، لا يقبلون منه شيئاً، حتى شكى ذلك من أمرهم نوح إلى الله تعالى، كما قصّ الله علينا في كتابه: ﴿ربّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلاَّ فراراً﴾ إلى آخر القصة، حتى قال: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفّاراً﴾ إلى آخر القصة.

فلما شكى ذلك منهم نوح إلى الله واستنصره عليهم، أوحى الله إليه: ﴿أن أصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾[1]، أي: بعد اليوم: ﴿إنهم مغرقون﴾ فأقبل نوح على عمل الفلك، ولهى عن قومه، وجعل يقطع الخشب، ويضرب الحديد، ويهيء عدة الفلك من القار وغيره مما لا يصلحه إلاَّ هو، وجعل قومه يمرّون به وهو في ذلك من عمله فيسخرون منه ويستهزئون به فيقول: ﴿إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾[2].

---

(١) سورة هود: الآية ٣٧.

(٢) سورة هود: الآية ٣٨.

قال: ويقولون له فيما بلغني: يا نوح قد صرت نجّاراً بعد النبوّة؟ قال: وأعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم ولد؛ قال: ويزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج، وأن يصنعه أزور، وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً، وأن يجعله ثلاثة أطباق سفلاً ووسطاً وعلوّاً، وأن يجعل فيه كوى؛ ففعل نوح كما أمره الله، حتى إذا فرغ منه، وقد عهد الله إليه: ﴿إذا جاء أمرنا وفار التنور فاحمل فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلاَّ قليل﴾[1].

وروى ابن جرير عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم أم الصبيّ». قال رسول الله ﷺ: «كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كلّ مذهب، ثم قطعها ثم جعل يعمل سفينته فيسخرون منه ويقولون: يعمل سفينة في البرّ فكيف تجري؟! فيقول: سوف تعلمون؛ فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك، خشيت أم الصبيّ عليه وكانت تحبّه حبّاً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثي الجبل، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أمّ الصبيّ»[2]. والله أعلم.

• • •

(١) سورة هود: الآية ٤.

(٢) سبق تخريجه، وسنده ضعيف.

الدرس الحادي والتسعون بعد المائتين

﴿سورة الجن﴾

مكية، وهي ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ

يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ
ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى
لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ
مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ
عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ
ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ
وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

قال ابن عباس: «انطلق رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فقالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلاَّ شيء حدث، فانطلقوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حدث. قال: فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء؛ فانطلق النفر الذين توجّهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي

حال بينكم وبين خبر السماء. قال: فهناك حين رجعوا إلى قومهم قالوا يا قومنا: ﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾. قال: فأنزل الله إلى نبيّه ﷺ ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجنّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجنّ»[١]. وقال الضحاك في قوله قال: ﴿أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجنّ﴾ هو قول الله: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ﴾[٢].

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وأنه تعالى جدّ ربنا﴾ يقول: فعله وأمره وقدرته. وعن مجاهد في قوله: ﴿وأنه تعالى جدّ ربنا﴾ قل: جلال ربنا. وقال الحسن: غنى ربنا. وعن مجاهد أيضاً قال: ذكره. وقال سعيد بن جبير: أي تعالى ربنا. **قال البغوي**[٣] **يقال**: جدّ الرجل أي عَظُمَ، ومنه قول أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا أي عَظُمَ قدره. ﴿وأنه كان يقول سفيهنا﴾ **قال البغوي**[٤]: جاهلنا ﴿على الله شططاً﴾ كذباً وعدواناً، وهو وصفه بالشريك والولد. ﴿وأنا ظننّا أن لن تقول الإنسا والجنّ على الله كذباً﴾ **قال البغوي**[٥]: أي ما حسبنا أن الإنس والجنّ يتمالون على الكذب على الله في نسبة الصاحبة والولد إليه. وعن معمر قال: تلا قتادة ﴿وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجنّ على الله كذباً﴾ فقال: عصاه والله سفيه الجنّ كما عصاه سفيه الإنس. وعن الحسن في قوله: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ﴾ قال: كان الرجل منهم إذا نزل الوادي فبات به قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه. ﴿فزادوهم رهقاً﴾ قال ابن زيد: خوفاً. وقال قتادة: قال الله ﴿فزادوهم

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٧٧٣ و ٤٩٢١)، ومسلم (ح/ ٣٣٢٣).

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٢٩.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٧٠ ــ ٣٧١).

(٤) المصدر السابق (٤/ ٣٧٠ ــ ٣٧١).

(٥) المصدر السابق (٤/ ٣٧٠ ــ ٣٧١).

رهقاً﴾، أي: إثماً، وازدادت الجنّ عليهم بذلك جراءة.

﴿وأنهم ظنّوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً﴾ بعد موته. وقال الكلبيّ. ظنّ كفّار الجنّ كما ظنّ كفرة الإنس: أن لا يبعث الله رسولاً. ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾ قال سعيد بن جبير: «كانت الجن تستمع، فلما رُجموا قالوا: إن هذا الذي حدث في السماء لشيء حدث في الأرض. قال: فذهبوا يطلبون حتى رأوا النبيّ ﷺ خارجاً من سوق عكاظ يصلّي بأصحابه الفجر، فذهبوا إلى قومهم منذرين». وقال ابن زيد في قوله: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾ حتى بلغ ﴿فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ فلما وجدوا ذلك رجعوا إلى إبليس فقالوا: منع منا السمع، فقال لهم: بأن السماء لم تحرس قطّ إلاّ على أحد أمرين: إما لعذاب يريد الله أن ينزله على أهل الأرض بغتة، وإما نبيّ مرشد مصلح. قال: فذلك قول الله ﴿وإنا لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾.

﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً﴾ قال ابن عباس: أهواء شتّى، منا المسلم ومنا المشرك. وقال قتادة: أهواء مختلفة. ﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾ قال البغوي[1]: ﴿وأنا ظننّا﴾ علمنا وأيقنّا ﴿أن لن نعجز الله في الأرض﴾، أي: لن نفوته إن أراد بنا أمراً ﴿ولن نعجزه هرباً﴾ إن طلبنا. ﴿وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ قال ابن عباس: لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة في سيّئاته. ﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾ قال: العادلون عن الحقّ الذين جعلوا لله ندّاً ﴿فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشداً﴾ قال البغوي[2]: أي قصدوا طريق الحقّ وتوخّوه ﴿وأما القاسطون﴾ الذين كفروا ﴿فكانوا لجهنّم حطباً﴾ كانوا وقود النار يوم القيامة.

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٧٠ ــ ٣٧١).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٧٠ ــ ٣٧١).

قوله عز وجل: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

قال البغوي(١): ثم رجع إلى كفار مكة فقال: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ قال مجاهد: طريقة الإسلام ﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ قال: نافعاً كثيراً، لأعطيناهم مالاً كثيراً ﴿لنفتنهم فيه﴾ قال: لنبتليهم به. وقال عمر رضي الله عنه: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً﴾ قال ابن عباس: شاقّاً. وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه. وعن ابن عباس ﴿عذاباً صعداً﴾ قال: جبل في جهنّم. وعن قتادة قوله ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله﴾ أحداً كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيّه أن يوحّد الله وحده. **وقال ابن جرير**(٢): يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجنّ﴾: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا﴾ أيها الناس ﴿مع الله أحداً﴾ ولا تشركوا به فيها شيئاً، ولكن أفردوا له التوحيد وأخلصوا له العبادة.

وعن قتادة ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً﴾ قال: تلبّدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلاّ أن ينصره ويمضيه

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٧٠ ــ ٣٧٢).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ١١٦).

ويظهره على من ناوأه. وقال الحسن: لما قام رسول الله ﷺ يقول: «لا إله إلاَّ الله»، ويدعو الناس إلى ربّهم، كادت العرب تكون عليه جميعاً. وقال ابن عباس ﴿لبداً﴾ أعواقاً. وقال العوفى عن ابن عباس: «لما سمعوا النبيّ ﷺ يتلو القرآن، كادوا يركبونه من الحرص لمّا سمعوه يتلو القرآن، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول، فجعل يقرئه ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾»[1] يستمعون القرآن. ﴿كادوا﴾ يعني الجنّ ﴿يكونون عليه لبداً﴾ أي يركب بعضهم بعضاً ويزدحمون حرصاً على استماع القرآن. قال ابن حجر العسقلانيّ[2]: «والمعنى أن الجنّ تزاحموا على النبي ﷺ لما استمعوا القرآن، وهو المعتمد». انتهى.

﴿قل إنما أدعو ربّي ولا أشرك به أحداً﴾، أي: قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذّبوه وتظاهروا عليه، ليبطلوا ما جاء به من الحقّ، واجتمعوا على عدواته ﴿وإنما أدعو ربّي﴾، أي: إنما أعبد ربّي وحده لا شريك له، وأستجير به، وأتوكّل عليه ﴿ولا أشرك به أحداً﴾.

وقوله تعالى: ﴿قل إنّي لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً﴾، أي: إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ، وعبد من عباد الله ليس لي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كلّه إلى الله عز وجل. ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لن يجيره من الله أحد: أي لو عصيته فإنه لا يقدِر أحد على إنقاذي من عذابه ﴿ولن أجد من دونه ملتحداً﴾ قال مجاهد: ملجأ. وعن قتادة ﴿إلاَّ بلاغاً من الله ورسالاته﴾ فذلك الذي أملك بلاغاً من الله ورسالاته.

﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنّم خالدين فيها أبداً حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقلّ عدداً﴾ **قال ابن كثير**[3]: أي حتى إذا

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩/١١٨) بسند ضعيف.

(٢) انظر «فتح الباري» (٨/٥٣٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٣٢).

رأى هؤلاء المشركون من الجنّ والإنس ما يوعدون يوم القيامة، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً وأقلّ عدداً، هم أم المؤمنون الموحّدون لله تعالى، أي: بل المشركون لا ناصر لهم بالكّلية وهم أقلّ عدداً من جنود الله عز وجل.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾.

قال ابن كثير: يقول تعالى آمراً رسول الله ﷺ أن يقول للناس: أنه لا علم له بوقت الساعة، ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ﴿قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربّي أمداً﴾، أي: مدّة طويلة ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول﴾ قال ابن عباس: فأعلم الله سبحانه الرسل من الغيب: الوحي، أظهرهم عليه بما أوحي إليهم من غيبه، وما يحكم الله فإنه لا يعلم ذلك غيره. وقال ابن زيد: ينزل من غيبه ما شاء على الأنبياء، أنزل على رسول الله ﷺ الغيب: القرآن؛ قال: وحدّثنا فيه بالغيب بما يكون يوم القيامة.

وعن الضحاك ﴿إلاّ من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ قال: كان النبيّ ﷺ إذا بعث إليه الملك، بعث ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه، أن يتشبّه الشيطان على صورة الملك. وعن إبراهيم ﴿من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ قال: ملائكة يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم. وقال ابن عباس: هي معقّبات من الملائكة يحفظون النبيّ ﷺ من الشيطان، حتى يتبيّن الذي أرسل به إليهم، وذلك حين يقول: ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾. وعن قتادة: ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ ليعلم نبيّ الله ﷺ أن الرسل قد أبلغت عن الله، وأن الله حفظها ودفع عنها. وقال

البغوي[١]: أي ليعلم الرسول أن الملائكة قد أبلغوا رسالات ربهم ﴿وأحاط بما لديهم﴾، أي: علم الله ما عند الرسل، فلم يَخْفَ عليه شيء.

﴿وأحصى كلّ شيء عدداً﴾. قال ابن كثير[٢]: ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل، وهو قول حكاه ابن الجوزيّ في زاد المسير، ويكون المعنى في ذلك: أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكّنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلاَّ لنعلم من يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾[٣]، وكقوله تعالى: ﴿وليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين﴾[٤] إلى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عدداً﴾ قال ابن عباس: أحصى ماخلق وعرف عدد ما خلق، فلم يفته علم شيء حتى مثاقيل الذرّ والخردل.

• • •

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٧٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٣٣).

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ١١.